

(١)

مال الوقف .. حرمة وتنميته

ودوره في خدمة المجتمع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه المبين: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فتح لعباده أبواب الخيرات، وأرشدهم إلى أفضل القربات ، وما ينفعهم في الحياة بعد الممات ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فمما لا شك فيه أنّ المال نعمة من نعم الله (عز وجل) أنعم به على الناس لتستقيم شؤون حياتهم، فهو قوام الحياة الإنسانيّة ، بحيث لا ينكر أحد ما للمال من أهمية في تسيير أمور الحياة، والنهوض بالأفراد والأمة لتحقيق وسائل العيش الكريم، والرقي إلى مدارج التقدم، والله درّ الشاعر حيث قال:

بالعلم والمال يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمْ *** لم يُبْنَ مُلْكٌ عَلَى جَهْلِ وإِقْلَالِ
ومع أنّ المال يكتسب هذه الأهمية في الحياة ، إلا أن الإسلام جعله وسيلة لا غاية ، لحفظ الحياة وقضاء الحاجات ، ووسيلة للبر والصلة والتكافل بين الناس ، فالمال وسيلة إذا استخدم في الصلاح كان نعمة، كما قال (صلى الله عليه وسلم): (نعمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ) ، وإذا استُخدم في الفساد كان وبالاً على صاحبه، كما قال (صلى الله عليه وسلم): (تَعَسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَ وَأُنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ) .

(٢)

والمال الصالح هو الذي ينفع صاحبه في دنياه وأخراه، فهو أحد الثلاثة التي يبقى أثرها بعد موت صاحبها ، كما قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ) ، ولا شك أن المال الموقوف هو في صلب الصدقة الجارية.

ومن صور المال الممتد خيره وبركته على صاحبه : الوقف ، فهو قرينة يتقرب بها العبد إلى خالقه ، في صورة من أعظم صور الإنفاق في سبيل الله (عز وجل) وأكثرها نفعا ، وأبعدها أثرا ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَحْتَبَسَ فِرْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ ، وَتَصَدِيقًا بوعده ؛ فَإِنْ شَبَعَهُ ، وَرِيَّهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). ويقول الحق سبحانه : { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ، ويقول عز وجل : { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ } .

ولقد سجل التاريخ بأحرف من نور صوراً مضيئة للصحابة الكرام (رضوان الله تعالى عليهم) الذين أدركوا هذا الفضل في الوقف ، وأيقنوا أن ما عند الله خير وأبقى ، فتسابقوا في الخيرات ، وأوقفوا أموالهم في سبيل الله صدقة جارية ، فيها هو الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يأتي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ويقول : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ : (إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا) قَالَ : فَتَصَدَّقَ بِهَا عَمْرٌ ، أَنَّهُ لَا يَبَاعُ وَلَا يُوْهَبُ وَلَا يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ، وَفِي الْقُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَبْنِ السَّبِيلِ، وَالضَّيْفِ لَا جُنَاحَ عَلَيَّ مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَيُطْعِمَ غَيْرَ مَتَمَوْلٍ).

(٣)

وها هو سيدنا عثمان (رضي الله عنه) يشتري بئر رومة من اليهودي ويوقفها على المسلمين (سقايةً لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَابْنِ السَّبِيلِ) ، وأوقف سيدنا أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) أحب ماله إلى قلبه صدقة جارية ، يقول سيدنا أنس (رضي الله عنه): كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلِ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسُ: فَلَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنْ أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَدُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَصَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بِخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ).

وعن عبد الله بن مسعود قال: لَمَّا نَزَلَتْ: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: "نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ" قَالَ: فَإِنِّي أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطًا فِيهِ سِتْمَانَةٌ نَخْلَةٍ، ثُمَّ جَاءَ يَمْشِي حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ وَفِيهِ أُمَّ الدَّحْدَاحِ فِي عِيَالِهَا فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: اخْرُجِي فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطًا فِيهِ سِتْمَانَةٌ نَخْلَةٍ. وهكذا تسابق الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) في وقف كثير من أموالهم

(٤)

وحبسها في أوجه الخير والبر ، حتى قال سيدنا جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) : " مَا أَعْلَمُ أَحَدًا كَانَ لَهُ مَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَّا حَبَسَ مَالًا مِنْ صَدَقَةٍ مُؤَبَّدَةٍ لَا تُشْتَرَى أَبَدًا وَلَا تُوهَبُ وَلَا تُورَثُ . "

وللمصريين تاريخ مشرف في الوقف حتى قال بعض العلماء والكتّاب : لقد مرَّ على مصر أزمنة كثيرة لم يكن فيها جائع لا من أهلها ، ولا من المقيمين بها ، أو الوافدين عليها أو حتى من مرُّوا بها لكثرة أوقافها ومحسنيها ، وقد سجل المصريون أروع الأمثلة في أوقافهم حتى أوقف بعضهم على حمام الحرم ، وأوقف بعضهم على دواب طلاب العلم ، وأوقف بعضهم على إيواء وإطعام الكلاب الضالة ، مما يؤكد عمق الحضارة المصرية ويجسد أعلى درجات الرحمة حتى بالحيوان في ديننا الحنيف.

جدير بالذكر أن مال الوقف هو مال الله (عز وجل) ، وهو لما أُوقِفَ له ، فشرط الواقف كنص الشارع ، فهو واجب النفاذ ، مالم يُجَلَّ حرامًا أو يُحرَّم حلالاً ، ومن ثمَّ تجب المحافظة عليه وتنميته واستثماره ، ويحرم أكله أو تضييعه ، أو التحايل بأي حيلة لاستباحته ، أو الاعتداء عليه أو تسهيل الاستيلاء عليه أو الإهمال في حقه وعدم المحافظة عليه فإن ذلك إثم كبير وجرم عظيم ، ومن ثمة فاحترام خصوصية الوقف ورغبة الواقف والحفاظ عليهما أمر لا مفر منه ولا محيص عنه ، والضرورات في ذلك تقدر بقدرها دون توسع ، كشأن من يضطر إلى أكل الميتة من أجل الحفاظ على الحياة ، كما أن مال الوقف بمثابة مال اليتيم وأشد ، فكلاهما نار تحرق جسد من يقترب منهما بغير حق

في الدنيا والآخرة ، حيث يحول هذا المال الحرام حياة آكله إلى جحيم في الدنيا {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ، يقول الحق (سبحانه وتعالى) : { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} ، ويقول سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} .

إن مال الوقف أمانة عند كل من يكون تحت يده منه شيء ، فيجب عليه أن يحافظ على تلك الأمانة، وأن يراها، وأن يردّها كاملة غير منقوصة ، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} .

ومال الوقف هو أمانة في أعناق المجتمع بآثره ، لأن نفعه يتعدى الأفراد إلى المجتمعات، وليس ملكاً لفئة معينة من الناس، والقائمون عليه إنما هم أمناء في حفظه وتحصيله ، وصرّفه لأهله ، فلا يحل لأحد أن يعتدي عليه ، أو يأخذ منه ما لا يستحق ، لأن ذلك يعدّ خيانة وظلماً واعتداءً على جميع المسلمين.

ويبقى هؤلاء المتربصون بالوقف الذين يظنونهم صيداً سهلاً ومالاً لا صاحب له ، ولهؤلاء نقول : إن لهذا المال صاحباً لا يغفل ولا ينام ، ولن ينتفع أحد بمال الوقف بغير حق فيهاً به أبداً ، إنما يكون عليهم حسرة في الدنيا

(٦)

قبل أن يقال يوم العرض على الله (عز وجل): {وَقَمُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، فماذا هم لربهم قائلون؟ .

وعلى الجانب الآخر هناك من يحمل راية المحافظة على مال الوقف ويريدها عالية خفاقة ، ويعمل على استرداد جميع حقوقه ، خشية الله ، وإحترافاً للحق ، وصوناً للوقف ، وتفصيلاً لدوره في العمل الخيري والاجتماعي وصالح الفقراء والمحتاجين ، وسائر أوجه البر التي أوقف لها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين. **إخوة الإسلام :**

إن للوقف أثراً كبيراً ودوراً عظيماً في بناء المجتمع في كثير من المجالات الاجتماعية ، من رعاية طلاب العلم ، وعمارة المساجد ، وبناء المدارس والمستشفيات ، وعلاج المرضى ، ورعاية المحتاجين من الفقراء والأيتام والأرامل ، وكفالة المحتاجين من ذوي الاحتياجات الخاصة وغيرهم، فهو يسهم إسهاماً كبيراً في بناء المجتمع وتحقيق أمنه واستقراره ، ويقضي على الفقر من خلال رعاية الفقراء والمحتاجين ورفع مستواهم الصحي والتعليمي والمعيشي، ونشر روح التعاون والمحبة والتواصل والتراحم بين أبناء المجتمع. ولا شك أن استثمار أموال الوقف وتنميته صورة من صور المحافظة عليه حتى لا تأكلها النفقات.

(٧)

جدير بالذكر أن لمال الوقف خصوصية يجب أن تحترم وتصان ، فمن أكله أو ضيعه أو فرط فيه أو تساهل وساعد في إتلافه فهو شريك في الإثم، مرتكب لكبيرة أكل المال الحرام التي نهى الإسلام عنها بكل صورها وأشكالها نهياً قاطعاً لا لبس فيه ، فأكل الحرام قتل للنفس وإهلاك وتدمير لها في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا وبال على صاحبه في صحته ، في أولاده ، في عرضه ، في أمواله ، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}.

على أن آكل الحرام لا تستجاب له دعوة ، فقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم) الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَكْسَبُهُ حَرَامٌ، وَعُدْيَتُهُ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ). وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن سيدنا سعد بن أبي وقاص قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يَا سَعْدُ أَطْبُ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْدِفُ اللَّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَإِيْمًا عَبْدٍ نَبَتَ لِحْمِهِ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالْتَّارُ أَوْلَى بِهِ) .

وختاماً نوكد أن من يعتدي على مال الوقف الذي هو مال الله بأي شكل من أشكال الاعتداء إنما يدخل في حرب مع الله (عز وجل)، وهي حرب مدمرة للمعتدين على مال الوقف وحق الأيتام والفقراء والمحتاجين .
نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً للطاعات وفعل الخيرات والإكثار من الصدقات ، وأن يضاعف للواقفين أجرهم وثوابهم .